الفصل الرابع

موقف أهل السنة بالأندلس من الفرق الإسلامية

المبحث الأول : موقف أهل السنة من الشيعة وطقوسهم .

المبحث الثانى : موقف أهل السنة من الخوارج.

المبحث الثالث : موقف أهل السنة من المعتزلة .

المبحث الرابع : موقف أهل السنة من الأشعرية

المبحث الأول : موقف أهل السنة من الشيعة وطقوسهم .

فى البداية لابد وأن نشير إلى أن أهل السنة هنا ليسوا قاصرين على الفقهاء والعلماء . بل يزاحمهم الشعب الأندلسى بفئاته المتعددة فضلا عن الحكام أنفسهم لأنهم جميعا كانوا من أهل السنة باستثناء بعض الفترات التى بز فيها حكام من الشيعة ومن الخوارج كما أسلفنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

عمل عبد الرحمن الداخل طوال مدة إمارته (138-172هـ/756-788م)على إخماد الثورات التي قامت ضده وعُني بشكل خاص بأن يضرب بيد من حديد على كل دعوة هاشمية، عباسية، كانت أو علوية ، أو كل ما من شأنه أن يخرج على المذهب السنى الذى نشأ وتربى عليه بالمشرق ، ومع ذلك فإنه لم يأمر بلعن الإمام علي بن أبي طالب ولا أحد من أهل البيت على المنابر.

وإذا كان يوم عاشوراء يوم حداد وحزن لدى جميع فرق الشيعة فإن المجتمع الأندلسى السنى بكافة توجهاته وفئاته اعتبروه عيداً خلال فترة الحكم الأموي ومن ثم حرصوا على إظهار الفرح فيه وإهداء الأطعمة فيما بينهم ، وذلك مكايدة للشيعة وشماتة فيهم ، وقد سجل لنا التاريخ أبياتاً لعبد الملك بن حبيب (ت 238هـ/842م) أحد فقهاء المالكية المشاهير بقرطبة في أيام الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط يقول فيه:

لا تنسى – لا ينسك الرحمن – عاشورا واذكره، لا زلت في التاريخ مذكورا

قال النبي صلاة الله تشمـــــــــله قولاً وجـــــدنا عليه الحق والنورا

فيمن يوسع في إنفـــــــــاق موسمه ألاّ يزال بذاك العام ميـــــــسورا([1])

1 المقري: نفح الطيب ، 2/ 6.

وهكذا نرى الشاعر الفقيه يحض الأمير الأموي على الاحتفال بهذا اليوم ناظماً بذلك الحديث الذي يستند إليه أهل السنة في هذه المسألة ، ونصه : " من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته " (1).

لم يتوقف الاحتفال بيوم عاشوراء بين أهل السنة حكاما ومحكومين لا سيما إذا علمنا أن رأساً من رؤوس المجتهدين بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى دعا إلى ذلك وروى الحديث فى إحدى مصنفاته الحافلة بالروايات والأحكام فقال : أخبرنا أحمد بن قاسم ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن حكم قالوا: حدثنا محمد بن معاوية حدثنا الفضل بن الحباب حدثنا هشام بن عبد الملك الطيالسي حدثني شعبة عن أبي الزبير عن جابر –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: "من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته"، قال جابر: جربناه فوجدناه كذلك، وقال أبو الزبير مثله، وقال شعبة مثله. (2).

بل إن ابن عبد البر النمرى الأندلسى قد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أجاز للأندلسين اللعب فى يوم عاشوراء بقوله عن حديث لعب الحبشة فى يوم عاشوراء : "رواه مالك في الموطإ 906 باب: النظر إلى اللعب نا أبو النضر عمن سمع عائشة تقول: سمعت أصوات ناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال رسول الله صلى الله عليه

---

1 الغمارى : هدية الصغراء بتصحيح حديث توسعة يوم عاشوراء ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ط2 ، 1427هـ/2006م ، ص9.

2 أنظر : الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والإختصار، تحقيق عبدالمعطى أمين قلعجى ، دار قتيبة دمشق – بيروت ، دار الوعى ، حلب – القاهرة ، 140/10.

وسلم :" أتحبين أن تري لعبهم ؟ قلت: نعم، فأرسل إليهم فجاؤوا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بيْن البابين فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت يدي على يده وجعلوا يلعبون وأنا أنظر وجعل رسول الله يقول: حسبك مرتين أو ثلاثا، ثم قال: يا عائشة حسبك، فقلت: نعم فأشار إليهم فانصرفوا" .

وفى عهد المرابطين يبز ابن العربى المالكى الإشبيلى (ت 543هـ/) ليؤكد على تواصل الاحتفال بيوم عاشوراء ، ويربط بين ما ذكره ابن حبيب المالكى آنف الذكر وبين ما يقع فى عصره ، وما يدعو إليه بقوله : " أما النفقة في يوم عاشوراء والتوسعة فمخلوفة باتفاق وأنه يخلف الله بالدرهم عشرة أمثاله " إلى أن قال : وقد رأيت لابن حبيب قطعة أبيات نذكرها إن شاء الله:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا ... واذكره لا زلت في الأحياء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشمله ... قولا وجدنا عليه الحق والنورا
أوسع بمالك في العاشور إن له ... فضلا وجدناه في الآثار مأثورا
من بات في ليلة العاشور ذا سعة ... تكن معيشته في الحول مسرورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا ... خير البرية مقبورا ومنشورا

ثم قال:" وقد تكلمنا على فضله ومعانيه في "كتاب المواعظ"، وأشبعنا القول فيه في "الكتاب الكبير" فلتنظر هنالك، والحمد لله" (1).

1 أنظر : المسالك شرح موطأ مالك ، تحقيق محمد بن الحسين السليمانى وعائشة بنت الحسين السليمانى ، دار الغرب الإسلامى ، 1428هـ/2007م ،4 /205.

وكان الصالحون بالأندلس فى عهد الموحدين يذبحون الذبائح ، ويعدون الطعام ، ويدعون الناس لتناوله احتفالا بهذه الليلة (1) ، وكان للمعلمين نصيب من الطعام أو جعل يجعل لهم أقره فقهاء المالكية وأجازوه (2) ، وقد حث فقهاء المالكية الناس على الإنفاق على أهليهم والتوسعة عليهم فى هذا اليوم ، ومنهم ابن القطان الفاسى الذى صنف رسالة بخصوص هذا الشأن أسماها (فضل عاشوراء وما ورد فى الإنفاق فيه على الأهل) (3) . كان لها تأثير كبير فى الأندلس والمغرب على السواء لا سيما إذا علمنا أنه تولى قضاء غرناطة وسبتة وسجلماسة فى عهد الموحدين ، وكان رئيسا لطلبة العلم بمراكش ، وقاضيا للقضاء ، ومعلوم أن أحكامه ومنها حكمه الخاص بالاحتفال بيوم عاشوراء أخذ شكلاً رسميا حال توليه منصب القضاء ، وكان يجد طريقه بين الناس بسهولة ويسر . لا سيما وأن المجتمع الأندلس قد اعتاد على الاحتفال بذلك طيلة القرون المنصرمة قبل عصر الموحدين .

ونعرف من ابن الحاج المالكى (ت 737هـ/1336م) أن الأندلسيين فى ظل بنى الأحمر تزيدوا فى الاحتفال بيوم عاشوراء حتى أحدثت النساء فيه استعمال الحناء ، ومن لم يفعلها منهن فكأنها ما قامت بحق عاشوراء ، كذلك كان الرجال والنساء يخرجون لزيارة القبور فى هذا اليوم ، كما أنهم اختصوا يوم عاشوراء بذبح الدجاج وغيرها ، ومن لم يفعل ذلك فكأنه ما

(1) سعيد أبوزيد : الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، شركة الهدى للطباعة ، قويسنا ، 1996م ، ص179 ; وانظر : عصمت دندش ، الأندلس فى نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين ، ص267.

(2) الونشريسى ، المعيار ، 254/8.

(3) محمود مكى ، مقدمة نظم الجمان لابن القطان ، ص17.

قام بحق ذلك اليوم، وكذا كانوا يقومون بطبخ الحبوب وغيرها . كما احتفلوا فى هذا اليوم بإشعال البخور ، ومن لم يشتره منهن في ذلك اليوم ويتبخر به، فكأنه ارتكب أمرا عظيما [1].

ونعرف من الشاعر ابن زمرك أن سلاطين غرناطة فى عهد بنى الأحمر كانوا يحتفلون بيوم عاشوراء ، ويصلون العلماء والفقهاء والشعراء فى هذا اليوم بجزيل النعم والعطاء ، ومن ثم نرى ابن زمرك يخلد ذلك فى شعره شاكرا النعم التى وصلته من محمد الخامس في عاشوراء : بقوله:

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا ... والرافعين لواءها المنشورا
إن لوحظوا في المعلوات فإنهم ..... طلعوا بآفاق العلاء بدورا
أو فوخروا في المكرمات فإنهم ... نظموا بأسلاك الفخار شذورا
أبناء أنصار النبي وصحبه ... في الذكر أصبح فخرهم مذكورا
والمؤثرين، وربنا أثنى بها ... في الحشر خلد وصفهم مسطورا [2]
فاضت علينا من نداك غمائم ..... وتفجرت من راحتيك بحورا
من كف شفاف الضياء تخاله ..... لصفاء جوهره تجسد نورا
نعم منوعة تعدد وفرها ..... أعجزت عنها شكري الموفورا
في موسم للدين قد جددته ..... وأقمت فينا عيده المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من منة ..... تهدي إليك ثوابها عاشورا

1ابن الحاج : المدخل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1425، 1/249،248.

2 يشير إلى الآية الكريمة التى نزلت في الأنصار " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " سورة الحشر آية 9.

وعلى الطريق بشائر محمودة .... ألقاك جذلانا بها مسرورا [1].

ومما سبق يتضح أن الأندلسيين حكومة وشعبا ظلوا على سنيتهم فيما يخص يوم عاشوراء ، ولم ينساقوا وراء الأفكار الشيعية الى عرفت طريقها إلى الأندلس ، بل عمدوا على معارضة المتشيعين وأفكارهم .

بل إن المعارضة للأفكار الشيعية وصلت بأحد الأمويين ممن لهم ميل لأهل البيت أن ينظم أرجوزة عن الخلفاء أخرج فيها علياً بن أبى طالب من زمرة الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ثم واصل ذكر الخلفاء إلى عبدالرحمن بن محمد ربما خوفاً من بطش حكام الأندلس السنة ، وربما – ولو فى الظاهر– نكاية فى الشيعة وتأييداً لمخطط الدولة الأموية السنية فى الوقوف فى وجه المشروع الفاطمى الشيعى الذى كان يهدف إلى تحويل الأندلس من المذهب السنى إلى الشيعى بناءً على أحقية أبناء على فى الخلافة . وقد لقى ابن عبدربه صاحب هذه الأرجوزة معارضة من رأس من رؤس السنة فى عصره وهو غضب المنذر بن سعيد البلوطى الظاهرى قاضى القضاة الذى سب ابن عبد ربه وكتب فى حاشية الكتاب الذى طالع فيه الأرجوزة :

أو ما على لا برحت ملعنا .... يا ابن الخبيثة عندكم بإمام.

رب الكساء وخير يل محمد ... دانى الولاء مقدم الإسلام [2]

استمرت الأندلس سنية النزعة طيلة العهد الأموى رغم تسرب بعض الأفكار الشيعية ، ولم تسمح السلطة ولا الشعب بأى فكر يغاير الفكر السنى ، ومن ثم فقد عبر

1المقرى : نفح الطيب ، 7/176،177.

2نقلا عن المقرى : نفح الطيب ، 2/512/511 ; وانظر : عبدالباقى السيد : تاريخ أهل الظاهر ، ص156.

المقدسي عن ذلك في القرن الرابع الهجري بقوله " إن الأندلسيين إذا عثروا على معتزلي أو شيعي فربما قتلوه(1)" .

كان من أساليب الأمويين السنة فى مواجة الشيعة والمتشيعين -خاصة في بعض أوقات التوتر السياسي بينهم وبين الدول الشيعية ومنها الأدارسة في المغرب والفاطميين في المغرب ومصر- استقبال الأندلس للاجئين السياسيين المعارضين للحكومات الشيعية في المشرق والمغرب، والاتصال برجال المعارضة للحكم الشيعي في المغرب ومصر وإشعال الثورات، فضلاً عن الصلات التجارية والعلاقات السياسية مع الإمارات السنية في المغرب ومصر وحوض البحر المتوسط فضلاً عن تشجيع التأليف في الشؤون الأفريقية والشيعية وفي مقدمة من فعل ذلك من الخلفاء الأمويين الخليفة الحكم المستنصر (350هـ -366هـ) الذي كلف الكاتب محمد بن يوسف القيرواني التاريخي الوراق بتأليف موسوعة في جغرافية إفريقية ومسالكها وشجع التأليف في أنساب الطالبين فضلاً عن ترجمة الكتب البربرية حول هذا الموضوع، وهو ما فصلنا القول عنه بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

ضاعف الأندلسيون نشاطهم حين ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب سنة 296هـ وتزايد اهتمام الخلافة الأموية في الأندلس بالشؤون الأفريقية فكان لحكومة قرطبة عيون

1 أنظر : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علق عليه ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية. بيروت 2002، ص190.

ووسطاء منبثون في جميع أنحاء المغرب [1] كذلك النشاط الثقافي الذي كان يمثله العلماء والفقهاء والشعراء الذين جندهم الأمويون للدفاع عن آرائهم السياسية والمذهبية وإذاعتها.

ومن جملة الأفكار والشعارات الشيعية التى واجهها فقهاء المالكية التكبير خمس تكبيرات فى صلاة الجنازة ، عملاً بقول ابن القاسم الذى عممت الفتوى بقوله فى قرطبة ، ويفصل القرافى المالكى هذه المسألة بقوله : "... أنه عليه السلام نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات ، ولأنها كالركعات فلا يزيد على الأربع، فلو زاد الإمام خامسة صحت الصلاة; لأنها مروية في غير هذا الحديث ومختلف فيها، ومع ذلك فروى ابن القاسم عنه: لا يتّبع فيها; لأنها من شعار الشيعة " [2].

لم يتوقف دور أهل السنة على ما سبق بشأن مواجهة المشروع الشيعى بأفكاره ومبادئه . بل انبرى بعض الفقهاء الكبار لتعقب أصول فرق الشيعة وإبطالها بالأدلة والبراهين ، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهرى الذى واجه الباطنية فى شدة وصرامة عندما أعلن فى فتوى له أن القائل بأن فى الإسلام شيئاً باطناً غير الأمور الظاهرة لكل الناس فهو كافر ويجب أن يقتل[3] . وفى فتوى أخرى يؤكد هذه المعارضة بقوله : "وكل ما فيه (أى القرآن) من خبر عن نبي من الأنبياء أو مسخ أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو حق على ظاهره لا رمز في

---

1 ابن سعيد : المغرب في حُلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ، ط3 ، القاهرة ، 1978، 180/1.

2أنظر : الذخيرة ،2/463.

(3) أنظر: المحلى ،5/376 .

شىء من ذلك "[1] ، وترجع هذه المعارضة إلى حماية أصلى الإسلام القرآن والسنة من التأويلات الفاسدة التى روج لها الباطنية على وجوه تؤدى إلى الإباحية وإبطال الشريعة كإباحتهم لأتباعهم نكاح بناتهم وأخواتهم وشرب الخمر وجميع الملذات ، وتأويلهم الملائكة على أتباعهم والشياطين على مخالفيهم ، وزعمهم أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام ، والزنا إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها ، وأن اليقين فى قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [سورة الحجر آية 99] هو معرفة التأويل ، ومن ثم قالوا من صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة [2] .

لقد فطن ابن حزم إلى هدف الباطنية من هذه التأويلات وهو الدعوة لدين المجوس والمذهب الدهرى الذى يقول بقدم العالم [3] ومن ثم فلم يتسامح معهم ولجأ إلى تكفير كل من يستخدم معان باطنية فى تأويل النص ، ويحمله ما لا يحتمله من خلال التفسير اللغوي .

ولعل لجوء ابن حزم إلى الفتوى دون المناظرة مع الباطنية يرجع إلى عدم الالتقاء بين الظاهرية والباطنية فى أى أصل من الأصول .

---

(1) أنظر: علم الكلام على مذهب أهل السنة ، تحقيق أحمد حجازى السقا ، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع ، القاهرة 1989م ، ص39 .

(2) البغدادي : الفرق ، ص257،250 .

(3) نفسه ، ص256،255

أما بخصوص الكيسانية فقد سلك ابن حزم معهم مسلك المناظرة لبعض فقهائها وكانوا كثيرين كابن نفق الليل المحدث بطلبيرة ، ومحمد بن عبدالله الكاتب الذى ناظره ابن حزم حول "هل الخضر مازال حيا" حيث أخبره الكاتب أنه جالس الخضر وكلمه مرارا هو وغيره كثير، فرد عليه ابن حزم قائلا : إن ذلك لا يقبله عقل ولا منطق لقوله تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) [سورة الأحزاب آية 40] وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (ليس بعدى نبي). فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده عليه السلام نبيا فى الأرض ، باستثناء عيسى بن مريم الذى أخبر الرسول بأنه سينزل فى آخر الزمان ويقتل الدجال (1) .

وتجدر الإشارة إلى أن كلام ابن حزم يحتمل أحد أمرين إما أن مناظره كان يعتقد بنبوة الخضر عليه السلام فجاء رده عليه هكذا ، وإما أنه هو الذى يعتقد نبوته ومن ثم أراد أن يخطىء قول مناظره بأن الخضر لم يمت بعد من خلال القرآن والسنة القاضيان بأن محمدا (ص) خاتم الأنبياء (2) . وأيا ما كان الأمر فقد كان على ابن حزم أن يحتج بما هو أجلى مما ذكره وهو قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) [سورة الأنبياء آية 34] فهذه الآية توضح أن كل من سبق النبى من الأنبياء أو غيرهم لم يخلدوا . بل كتب الموت على كل من كان قبله .

(1) أنظر : الفصل ،3/114،113 والآية رقم40 من سورة الأحزاب ، والحديث رواه البخاري فى المغازى باب78 .

(2) لمزيد من التفاصيل عن مسألة – هل الخضر نبى أم لا – أنظر ابن حجر ، الزهر النضر فى نبأ الخضر ، تحقيق مجدى السيد ، مكتبة الساعى ، الرياض ، ص22-83 .

وإلى جانب المناظرة نرى ابن حزم يعمد إلى جمع مبادئهم ، والرد عليها فى رسائل ضمنها كتابه الفصل – فيما بعد – لتكون فى متناول طلبة العلم ، ومن ذلك انتقاده لقولهم بالرجعة ، حيث يقولون إن محمد بن على بن أبى طالب وهو ابن الحنفية حى بجبل رضوى بين مكة والمدينة ، عن يمينه أسد وعن يساره نمر تحدثه الملائكة ، ويأتيه رزقه غدوا وعشيا ، ولم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وربط بين قولهم هذا وعقيدة اليهود قائلا : " فصار هؤلاء فى سبيل اليهود القائلين بأن ملكيصيدق بن عامر بن أرفخشذى بن سام بن نوح ، والعبد الذى وجه إبراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت نتوال بن ناحور بن تارح على إسحاق ابنه عليه السلام ، وإلياس عليه السلام ، وفنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم "[1] وهو بقوله هذا يعد من أوائل مؤرخي الفرق الذين ربطوا بين عقيدة الشيعة واليهود ملفتا النظر إلى تأثر الأولى بالثانية .

كما عارض قولهم بتناسخ الأرواح ، حيث كانوا يأخذون البغل والحمار ويعذبونه على أنه روح أبى بكر وعمر،وكذا يفعلون بالعنز على أنه روح أم المؤمنين عائشة ، وانتقد قولهم بأن عليا لم يكن له سمى قبله ، فقد أثبت بطلان ذلك بأن هناك من تسمى باسمه قبله كثير مثل على بن بكر بن وائل ، وأن قبيلتى الأزد وبجيلة سمت بعض أبنائهما باسم على ، وكان عامر بن الطفيل يكنى بأبى على ، وانتقد قولهم بفناء الجنة والنار، وعدم فناء الدنيا[2] والذى أبطله بقوله تعالى عن خلود المؤمنين فى الجنة (خالدين فيها أبدا) [سورة النساء آية

(1) أنظر الفصل،3/113،112

(2)نفس المصدر،3/116،115

57] وقوله(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) [سورة هود آية 56] فضلا عن اتفاق الأمة على أنه لا فناء للجنة والنار(1) .

والملاحظ أن ابن حزم فى مناظراته وانتقاده لأصول الكيسانية كان يلجأ إلى نصوص القرآن والسنة ولم يعتمد على التأويل أو العقل ، وذلك لأن طائفة منهم كانوا محدثين من أهل العناية وسعة الرواية ، ومن ثم استخدم معهم نفس أسلوبه الجدلي مع الفقهاء والمحدثين من أهل السنة(2)

وإلى جانب الكيسانية فقد عرفت الأندلس الشيعة الإمامية التى وجد لها بعض الأتباع وإن كانوا قلة ، وقد عارض ابن حزم هذه الفرقة وانتقد الكثير من أصولها ومنها القول بإجازة نكاح تسع نسوة ، وتحريم الكرنب لأنه نبت على دم الحسين ولم يكن قبل ذلك ، والادعاء بأن القرآن محرف إذ دخله ماليس منه ، وحذف منه الكثير، وقد تشدد ابن حزم فى حكمه على هذه الفرقة حتى أنه نسبهم إلى الكفر لتكذيبهم الرسول (ص) وصريح القرآن(3) وهذه الشدة فى الفتوى توضح مدى حرصه على حماية أصلى الإسلام – القرآن والسنة – من تحريف الغالين وانتحال المبطلين بإلصاق أقوال فاسدة إليهما ، خاصة وأن هذه الفرقة تقول بالقياس الذى يعتبره ابن حزم من أخطر الأضرار على التشريع الإسلامى0

(1) نفس المصدر،2/398،397 .
(2) أنظر: الفصل ،3/114،113 .
(3) أنظر : الفصل،3/116،115

ويتضح أثر ابن حزم جليا بخصوص هذا الشان فى اهتمام الأندلسيين بمناظراته وانتقاداته لفرق الشيعة حتى أنهم حفظوها وسجلوها فى كتب للرجوع إليها عند مناظرتهم بعض المتشيعين (1) .

وإذا كان المذهب المالكى هو المذهب الرسمى فى المغرب والأندلس طيلة التاريخ الإسلامى باستثناء عصر الموحدين فلابد من وقفة مع دور المالكية فى مواجهة الشيعة فى الأندلس ، وهو ما يتضح من خلال نشر الأندلسيين أقوال الإمام مالك بشأن الشيعة ومنها : ما ذكره أشهب بن عبد العزيز حيث قال : سئل مالك عن الرافضة ؟ فقال :" لا تكلّمهم ولا ترو عنهم فإنّهم يكذبون. (2) " .

وسُئل مالك أيضا عن أشرّ الطوائف ؟ فقال:" الروافض. (3) " .

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل عن مالك قوله :" الذي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليس له سهم. أو قال. : نصيب في الإسلام. (4) .

وقال الإمام مالك عن سب الشيعة الروافض للصحابة: "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه، حتى يقال: رجل سوء ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين" (5).

---

(1) ابن حزم ، الفصل ،3/114،113 ; وأنظر : ابن بسام ، الذخيرة ، قسم1ج1ص170.

2نقلا عن ابن تيمية : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، 1/59-60.

3المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 5/ 307.

4الخلال : السنة ، 1/389 برقم 779.

5 نقلا عن ابن تيمية : الصارم المسلول ،580.

هذه الأقوال التى رويت عن الإمام مالك بشأن الشيعة تمسك بها الأندلسيون ، ونشروها فيما بينهم ، ولم يحيدوا عنها فى تعاملاتهم طيلة عصر الإمارة الأموية بالأندلس والخلافة ، وكذا عصر ملوك الطوائف وما تلى ذلك من عصور .

وفى عصر المرابطين نجد الفقيه والمؤرخ أبو بكر عبد الله المالكي صاحب رياض النفوس (ت 494هـ) ينفى عن الشيعة انتسابهم إلى الإسلام في ترجمة الإمام المَمْسى[1] حيث يقول : " رأى رضي الله عنه أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد فرض لازم ، لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورَثون ويرثون ، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم [2] " ، وقوله هذا الذى ضمنه فى كتابه وجد طريقه إلى الأندلس عن طريق الطرطوشى ، والقاضى عياض اليحصبى ، وابن الآبار البلنسى [3].

وفى ذات العصر يخرج علينا القاضى أبو بكر بن العربي المالكي المعافري : منتقداً المعتقد الشيعى ومبينا ضلاله بقوله : "ما رضيت النصارى واليهود في أصحاب موسى وعيسى، ما رضيت الروافض في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، حين حكموا عليهم بأنهم قد اتفقوا على الكفر والباطل" [4].

1هو أبو الفضل العباس بن عيسى المَمْسى ، كان فقيها زاهدا لم يكن في طبقته أفقه منه ، سمع من موسى القطان والبجلى وجماعة ، وأخذ عنه ابن أبي زيد و ابن مغيث و غيرها ، ألف كتبا منها : اختصار كتاب ابن المواز و تحريم الخمر ، قتُل رحمه الله سنة 333 . أنظر : القاضى عياض : ترتيب المدارك ، 5/ 297 .

2أنظر : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ، 2/ 297.

3أنظر : بشير البكوش : مقدمة تحقيق كتاب رياض النفوس للمالكى ، 27/1.

4 أنظر : العواصم من القواصم ، ص192.

وقالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ المالكى مدافعا عن عائشة ومنتقدا الشيعة : تَعَلَّقَ الرَّافِضَةُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ- بِهَذِهِ الْآيَةِ (وقرن فى بيوتكن) عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذْ قَالُوا: إنَّهَا خَالَفَتْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ خَرَجَتْ تَقُودُ الْجُيُوشَ، وَتُبَاشِرُ الْحُرُوبَ، وَتَقْتَحِمُ مَأْزِقَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ فِيمَا لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهَا وَلَا يَجُوزُ لَهَا. قَالُوا: وَلَقَدْ حُصِرَ عُثْمَانُ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَمَرَتْ بِرَوَاحِلِهَا فَقُرِّبَتْ لِتَخْرُجَ إلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهَا مَرْوَانُ: أَقِيمِي هُنَا يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَرُدِّي هَؤُلَاءِ الرَّعَاعَ، فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ خَيْرٌ مِنْ حَجِّكِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: إنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نذرت عَنْهَا، نَذَرَتِ الْحَجَّ قَبْلَ الْفِتْنَةِ، فَلَمْ تَرَ التَّخَلُّفَ عَنْ نَذْرِهَا، وَلَوْ خَرَجَتْ فِي تِلْكَ الثَّائِرَةِ لَكَانَ ذَلِكَ صَوَابًا لَهَا. وَأَمَّا خُرُوجُهَا إلَى حَرْبِ الْجَمَلِ فَمَا خَرَجَتْ لِحَرْبٍ، وَلَكِنْ تَعَلَّقَ النَّاسُ بِهَا، وَشَكَوْا إلَيْهَا مَا صَارُوا إلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْفِتْنَةِ وَتَهَارُجِ النَّاسِ، وَرَجَوْا بَرَكَتَهَا، وَطَمِعُوا فِي الِاسْتِحْيَاءِ مِنْهَا إذَا وَقَفَتْ إلَى الْخَلْقِ، وَظَنَّتْ هِيَ ذَلِكَ فَخَرَجَتْ مُقْتَدِيَةً بِاَللَّهِ فِي قَوْلِهِ:" لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ" [النساء: 114]، وَقَوْلِهِ:" وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما" [الحجرات: 9] وَالْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ مُخَاطَبٌ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ ذكر وأنثى، حر أَوْ عَبْدٍ فَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى بِسَابِقِ قَضَائِهِ وَنَافِذِ حُكْمِهِ أَنْ يَقَعَ إصْلَاحٌ، وَلَكِنْ جَرَتْ مُطَاعَنَاتٌ وَجِرَاحَاتٌ حَتَّى كَادَ يَفْنَى الْفَرِيقَانِ، فَعَمَدَ بَعْضُهُمْ إلَى الْجَمَلِ فَعَرْقَبَهُ، فَلَمَّا سَقَطَ الْجَمَلُ لِجَنْبِهِ أَدْرَكَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، فَاحْتَمَلَهَا إلَى الْبَصْرَةِ،

وَخَرَجَتْ فِي ثَلَاثِينَ امْرَأَةً، قَرَنَهُنَّ عَلِيٌّ بِهَا حَتَّى أَوْصَلُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ بَرَّةً تَقِيَّةً مُجْتَهِدَةً، مُصِيبَةً مُثَابَةً فِيمَا تَأَوَّلَتْ، مَأْجُورَةً فِيمَا فَعَلَتْ، إِذْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ فِي الْأَحْكَامِ مُصِيبٌ.(1).

وفى ذات العصر نجد القاضي عياض اليحصبى يشن حملة شعواء على الشيعة – فى غير موضع من كتابه ترتيب المدارك– ، وجدت صدى لها بالمغرب والأندلس على السواء فيقول مبينا ما فعله الفاطميون بأهل السنة : " كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة ، تجري عليهم في أكثر الأيام محن شديدة ، ولما أظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسينا الأعمى السباب لعنه الله في الأسواق للسب بأسجاع لُقّنها يُتوصل منها إلى سبّ النبي صلى الله عليه وسلم في ألفاظ حفظها ،كقوله . لعنه الله . : العنوا الغار وما حوى والكساء وما حوى وغير ذلك ، وعُلّقت رؤوس الحمر والكباش على أبواب الحوانيت عليها قراطيس معلقة مكتوبة فيها أسماء الصحابة ، اشتدّ الأمر على أهل السنة فمن تكلم أو تحرّك قُتل أو مُثّل به ، وذلك في أيام الثالث من بني عبيد وهو إسماعيل الملقب بالمنصور سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة (2) .

وقال أيضا : "وضرب النفطي قاضي الشيعة محمدا هذا في جميع القيروان عريانا وصفع قفاه حتى سال الدم من رأسه ، وبرّح عليه في الأسواق ، وأطافه عريانا على حمار ، إذ رُفع عنه أنه كان يفتي بمذهب مالك ويطعن على السلطان ، ثم حُبس(3)" .

---

1 نقلا عن القرطبى : التفسير ، 14/181.

2 أنظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، 5/303

3أنظر : ترتيب المدارك ، 5/ 337.

ونقل القاضي عياض عن بعض العلماء قوله :" أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القابسي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطبني، وأبو بكر بن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل. فيقتلون بالزندقة، قالوا: ولا يقدر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم، بخلاف سائر أنواع الكفر. لأنه أقام بعد علمه بكفرهم.(1) " .

وأفتى القاضي عياض المالكي بتكفير غلاة الشيعة حيث قال : "وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: "إن الأئمة أفضل من الأنبياء." (2).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأقوال والفتاوى التى ذكرها القاضى عياض قد اشتهر أمرها بالأندلس ، وعمد الأندلسيون على العمل بها . لا سيما وأن القاضى عياض درس وحصل العلم بالعديد من مدن الأندلس ، وبعد توليه قضاء مدينته سبتة تولى قضاء غرناطة مما كان له أكبر الأثر فى انتشار أقواله وفتاويه .

وتجدر الإشارة إلى أننا فى عصر الموحدين نجد أفكاراً شيعية فى فكر ابن تومرت رأس دولة الموحدين وهو ما عبر عنها المراكشى بقوله : " كان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه على العامة شيئا (3) ، ومعلوم أن ابن تومرت كانت له رحلة إلى الأندلس أثر خلالها وتأثر . أضف إلى ذلك أن أفكاره العقدية كان لها انتشار بالأندلس فى عهد خلفائه ،

1أنظر : ترتيب المدارك ، 7/ 277.

2 أنظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، 1/290.

(3) أنظر : المعجب ، ص162 ; المنونى ، حضارة الموحدين ، ص41.

ومن جملة هذه الأفكار الشيعية قضية العصمة والمهدوية والإمامة التى أصل لها بطريقة تقترب من طريقة الشيعة الإمامية. حيث أعلن على الملأ سنة 515هـ/1121م: " وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة .... ولا يكون الإمام إلا معصوما " . ثم إن ابن تومرت يتوعد من لا يؤمن بفكرته عن العصمة والمهدوية بأنه كافر جاحد أو فاجر فاسق(1).

والغريب فى الأمر أن هذه الأفكار جاءت هذه المرة من قبل صاحب سلطة وقوة وبطش ، وهو ما جعل بعض الفقهاء الرسميين يتابعونه عليها إلى حين ، ومن ثم وجدنا الموقف الرسمى فى المغرب والأندلس يؤيد ابن تومرت فى فكرته . فهذا قاضى القضاة ابن مضاء الظاهرى ينص على ذلك فى صدر أحد كتبه بقوله : وأسأل الله الرضى عن الإمام المعصوم والمهدي المعلوم , وعن خليفتية سيدينا أميري المؤمنين , الوراثين مقامه العظيم ، وأصل الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين" ... (2) ، وعنى ابن مضاء بالإمام المعصوم محمد بن تومرت ، وعنى بأميرى المؤمنين عبدالمؤمن بن على ، وابنه يوسف بن عبدالمؤمنوعنى بأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدى ، ولعله كان مجاملا للسلطة وقتها مخافة البطش حتى أبطل المنصور هذه البدعة .

---

(1) أنظر : كتاب أعز ما يطلب ، ص245،246 ، 254; صلاح السيد ، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى ، ص65،66 ; عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص111.

2 أنظر : الرد على النحاة ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط1 ، 1399هـ/1979م ، ص63.

ظلت هذه الأفكار على المستوى الرسمى منتشرة فى المغرب والأندلس طيلة عهد المهدى ابن تومرت وخليفتيه عبدالمؤمن بن على ويوسف ابنه رغم معارضة بعض القبائل والأفراد لها فى المغرب والأندلس [1]، حتى أعلن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن معارضته لها فبدأت موجة جديدة من المعارضة لها ، وإن استمر اعتقاد البعض من المغاربة والأندلسيين لهذه الأفكار حتى أبطلها المأمون بن المنصور فى منشور رسمى.

ومن المعترضين على المهدوية والعصمة الكاتب أبوالحسن عبدالملك بن إياس القرطبى الذى ألف كتابا طعن فيه فى مبادىء الموحدين ، وقد انتدب عبدالمؤمن للرد عليه بعض الأعلام الذين عرفوا بقوة الحجة فى الجدل والمناظرة[2] ، وذلك فى إطار دفاع الدولة رسميا عن أفكارها ، وقد اعترض عليها من الموحدين أنفسهم المنصور الموحدى الظاهرى حيث رفض عصمة ابن تومرت الذى ادعى أنه المهدى المنتظر، وشهد بحجر الكعبة أنه لا يقول بعصمته، وطبق ذلك عمليا بدولته. إذ إنه كان يعترض على من يصف المهدى بالإمامة والعصمة بحضرته ويغضب منه[3] .

وقد تابع المنصور فى اعتراضه على المهدية ابنه المأمون (626-630هـ/1229-1232م) الذى محى اسم ابن تومرت من الخطبة والسكة ، وأعلن أن وصفه بالإمام المعصوم نفاق وبدعة وأمر باطل ، حيث أنه لا مهدى إلا عيسى عليه السلام ، وكان عمله هذا هو رغبة أبيه المنصور الذى كان من أشد حكام الدولة تأثرا بابن حزم ، وكتب الكتب بلعن

1عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ن ص113.

(2) عبدالمجيد النجار ، المهدى بن تومرت ،474،425،426.

(3) المراكشي، المعجب،ص292،291.

المهدى فى البلاد وقال (كيف يدعى العصمة من لا يعرف بأى يد يأخذ كتابه) فتمكن بغض المهدى فى القلوب ، ولم يترتب على ما فعله المأمون أية معارضة من قبل الرعية ، بل أشاد الشعراء بتصرفه وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة (1) ، وبذلك فقد نجح فى تصديع تلك العقيدة واختفى الحماس الذى كان لها فى أوائل العهد الموحدى ، ودب الشك فى الإيمان بها.

ويرجع اعتراض المأمون على المهدوية ومحو رسومها إلى تأثره بأبيه المنصور فى ضرورة نشر المذهب الظاهرى علانية ، ومن ثم كان عليه أن يبطل ما يتعارض مع هذا المذهب الذى يرفض نظرية المهدى من أساسها(2). كما أن هذه العقيدة إحدى الأصول التى بنى عليها المذهب الشيعى هى ومسألة الرجعة ، وهو المذهب الباطنى العدو اللدود للظاهرية والمذهب الظاهرى ، أضف إلى ذلك اعتماد المأمون على كلام ابن حزم بخصوص الأحاديث الواردة بشأن المهدى والتى اعتبرها من اختلاق الروافض ، وأنها وليدة التأثر باليهود والنصارى والمجوس (3)، فضلا عن سيطرة أشياخ الموحدين من المؤمنين بفكرة

---

(1) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، فرانز ستايز شتوتفارت ، 1412هـ/1992م ، 323،322/8 ; وانظر : ابن خلدون ، العبر،253/6 ; ابن الخطيب ، الإحاطة، 419،420/1; الناصرى ، الاستقصا ، 238/2 ; ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمسام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ط2 ، 1967م ، ص 126 ; محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين، ص370-372; محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، مينا للنشر، ط1992م ،177/3 ; عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص301.

(2) الصفدى ،الوافى بالوفيات ، 320/8 ; وعن موقف المذهب الظاهرى من نظرية المهدى أنظر : ابن حزم ، المحلى ، 43/1 ; عبدالباقى السد ، ابن حزم ، ص299-302.

(3) عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص115 ; وانظر رأى ابن حزم بخصوص هذا الشأن فى : الفصل ، 372،165/1.

المهدوية على كل شىء فى الدولة حتى صار الخلفاء رهن إشارتهم ، ومن ثم كان لزاما على المأمون أن يقضى على هذه الفكرة التى يتقوون بها [1]. كما أن المهدى ادعى العصمة ، ولم يتوقف على ادعائه المهدية ، والعصمة لم تثبت إلا للنبى ، فكيف يدعى هو العصمة التى لم تثبت للصحابة وهم خيرة الناس[2].

وقد اتبع الرشيد سياسة أبيه المأمون فى بداية حكمه سنة 630هـ/1232م فى التنكر للمهدية وعصمة المهدى ، لكنه اضطر بعد ذلك إرضاءً لشيوخ المصامدة أن يعترف بالمهدية لإحداث نوع من التوازن بين القوى القبلية ، ولكن مع مراعاة عدم المغالاة كما كانت أيام المهدى وخليفتيه عبدالمؤمن ويوسف ، وفى عهد المرتضى نجده يسلب المهدى عصمته ويكتفى بوصفه فى رسائله بالإمام القائم بأمر الله [3] بل إن المصلين فى عهده كانوا يعترضون على الخطباء الذين يقولون بعصمة المهدى [4] .

وهذه التغيرات إن دلت فإنما تدل على مدى النجاح الذى حققه المأمون بإلغائه رسوم المهدى – والتى كانت إحدى النزعات الشيعية التى انتشرت بالمغرب والأندلس – ، وهو انتصار كبير لفقهاء الظاهرية ومعهم المالكية أيضا .

---

(1) عز الدين عمر ، الموحدون ، ص149،150; وانظر : أحمد عزاوى ، رسائل موحدية ، 1/386.

(2) مجهول ، الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ، 1936م ، ص138 ; وانظر : عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص115،116.

(3) أحمد عزاوى ، رسائل موحدية ، 2/214،215،212،213.

(4) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص445،446; وانظر : عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص116.

كذلك فقد اعترض الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الظاهرى (ت638هـ/1240م) على مهدية ابن تومرت وعصمته رغم قوله بضرورة خروج المهدى المنتظر إذ كان يراه لم يظهر بعد(1) وهو الأمر الذى لقى قبولا كبيراً بين تلامذته والظاهرية عموما. كما اعترض على المهدوية بعض المالكية من أتباع (ابن العريف الصوفى) الذى أفتى فى رسالة له ردا على تساؤل عن المهدى "وانتظار مهدى يصلح به لا يعتقده حصيف ، ولا يظن مثله بمسلم إلا ضعيف "، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا عندما صرح فى رسالة خاطب بها أحد أصحابه وأتباعه قائلا عن ابن تومرت ومهديته وعصمته : " إن الله أرحم بالأمة أن يفتقر سلطانها إلى شخص واحد بعينه حتى لا تصلح إلا به" (2).

ويبرز الإمام القرطبي المالكي صاحب التفسير فى عصر بنى نصر ليبين حقيقة طعن الشيعة فى الصحابة بقوله: "وأما الروافض فليس قولهم مما يشتغل به ولا يحكى مثله، لما فيه من الطعن على السلف والمخالفة لسبيل المؤمنين." (3).

وقال أيضا موضحا بدع الشيعة : " قيل لأبي عبدالله: فإن قال رجل: أنا أذهب إلى حديثأبي أيوب (حُبب إليّ الغسل) قال: نحن لا نذهب إلى قول أبي أيوب، ولكن لو ذهب إليه ذاهب صلينا خلفه، قال: إلا أن يترك رجل المسح من أهل البدع من الرافضة الذين لايمسحون وما أشبهه، فهذا لا نصلي خلفه..." (4).

---

(1) ابن عربى ، الفتوحات المكية ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1420هـ/1999م ، 50/6 وما بعدها .

(2) أنظر: مفتاح السعادة ، ص34،35.

3 أنظر : الجامع لأحكام القرآن ، 161/8.

4أنظر : التفسير ، 140/11.

وقال أيضا عن معتقد الشيعة فى القرآن : " وقد طعن الرافضة قبحهم الله تعالى في القرآن"([1]).

وقال رحمه الله منتقداً الشيعه فى ادعائهم كتمان النبى لبعض الدين : قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ" [المائدة:67] قيل: معناه أظهر التبليغ; لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفًا من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس، وكان عمر رضي الله عنه أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعبد الله سرًا وفي ذلك نزلت: " يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ" الأنفال:64. فدلت الآية على رد قول من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئًا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه صلى الله عليه وسلم لميُسرَّ إلى أحدٍ شيئًا من أمر الدين; لأن المعنى: بلِّغ جميع ما أنزل إليك ظاهرًا،ولولا هذا ما كان في قوله عز وجل: " وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" [المائدة:67] فائدة ([2]).

1أنظر : نفسه ، 85/1.

2أنظر : تفسير القرطبى ، 228/6.

المبحث الثانى : موقف أهل السنة من الخوارج

وفيما يخص الموقف من الخوارج فإن فقهاء المالكية قد واجهوا الأباضية من خلال الفتوى حيث أفتى بعضهم أن المعتنق للأباضية يستتاب وإلا قتل ، والبعض الآخر ذهب إلى أنهم فى النار ونهى عن الصلاة خلفهم وقال بأن الأباضى كالكافر يقتل بغير استتابة ، ومنهم من نهى عن تعليم الخوارج وأولادهم القرآن والكتب الشرعية (1) . وهذا التوجه يلفت نظرنا إلى أن المجتمع الأندلسى فى عصر الدولة الأموية وما تلاه من عصور – باستثناء بعض الفترات التى حكم فيها الخوارج فى عصر ملوك الطوائف- لفظ الخوارج على المستوى الرسمى . إذ منعهم من الصلاة فى مساجد السنة ، ومنعهم من حضور جلسات العلم ، ومن حفظ القرآن على يد شيوخ السنة .

ظلت هذه المعارضة من قبل المالكية فى عصر المرابطين فى المغرب والأندلس على السواء حيث وجدنا قاضياً بارزاً من قضاة المالكية وهو القاضى عياض اليحصبى يتعقب بعض أقوال الخوارج وينتقدها ومن جملتها عدم اشتراط كون الإمام قرشيا حيث قال : " اشتراط كون الإمام قرشيا مذهب العلماء كافة ، وقد عدوها فى وسائل الإجماع ولم ينقل عن أحد من السلف فيها خلاف ، وكذلك من بعدهم فى جميع الأمصار ، ولا اعتداد بقول الخوارج ومن وافقهم من المعتزلة لما فيه مخالفة المسلمين " (2).

---

(1) أنظر: ابن سهل ، ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع فى الأندلس ، ص32،27،26-34 ; الونشريسى ، المعيار، 237/8 ; محمود مكى ، الخوارج بالأندلس، ص171 .

2نقلا عن ابن حجر : فتح البارى ، 128/13 ، 129.

لم تقتصر مواجهة الخوارج على الجانب الرسمى فحسب بالنسبة للدولة وفقهائها . بل وجدنا أحد فقهاء السنة من غير الاتجاه الرسمى ، وهو ابن حزم الظاهرى يسلك فى مواجهة الخوارج مسلكين :-

أحدهما : المناظرة وإن لم يذكر لنا موضوعات المناظرة ولم يدونها فى كتبه التى بين أيدينا مثل ما فعل مع بعض الفرق الأخرى (1) .

الثانى : انتقاده لأصولهم ومبادئهم التى جمعها فى كتابه – الفصل – بالحجج العقلية والنقلية ومن ذلك قولهم أن الشفاعة لا تنال أصحاب الكبائر من أمة الإسلام (2) وإنكارهم عذاب القبر(3) وإجازتهم الخلافة فى غير قريش (4) ونفيهم لظهور الدجال(5).

وبشأن تعقب ابن حزم لأصول الخوارج وأفكارهم فقد أبطل قولهم فى الشفاعة بقوله : " من يؤمن بالشفاعة أنه لا يجوز الإقتصار على بعض القرآن دون بعض ولا على بعض السنن دون بعض ولا على القرآن دون بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي قال له ربه عز وجل لتبين للناس ما نزل إليهم وقد نص الله تعالى على صحة الشفاعة في القرآن فقال تعالى لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا فأوجب عز وجل الشفاعة إلا من اتخذ عنده عهدا بالشفاعة وصحت بذلك الأخبار المتواترة المتناصرة بنقل الكواف لها قال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قوله وقال تعالى ولا تنفع

---

(1) أنظر: الفصل،2/374،373.

(2) نفس المصدر،2/366-370 ; وانظر : عبدالقادر البحراوى ; الخوارج ، ص84 .

(3) أنظر: الفصل،2/372-374.

(4) نفس المصدر،3/7،6.

(5) نفس المصدر،1/131،130.

الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا وقال تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له فنص تعالى على أن الشفاعة يوم القيامة تنفع عنده عز وجل ممن أذن له فيها ورضي قوله ولا أحد من الناس أولى بذلك من محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أفضل ولد آدم عليه السلام وقال تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقال تعالى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون وقال تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه فقد صحت الشفاعة بنص القرآن الذي يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فصح يقينا أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أثبتها عز وجل وإذ لا شك في ذلك فالشفاعة التي أبطل عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار قال تعالى لا يخفف عنهم من عذابها ولا يقضي عليهم فيموتوا نعوذ بالله منها فإذ لا شك فيه فقد صح يقينا أن الشفاعة التي أوجب الله عز وجل لمن أذن له واتخذه عنده عهدا ورضي قوله فإنما هي لمذنبي أهل الإسلام وهكذا جاء الخبر الثابت "[1].

وأبطل إنكارهم لعذاب القبر بالنقل والعقل فقال : " لا يدفع عذاب القبر لأن فتنة القبر وعذابه والمسألة إنما هي للروح فقط بعد فراقه للجسد أثر ذلك قبر أو لم يقبر برهان ذلك قول الله تعالى ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم الآية وهذا قبل القيامة بلا شك وأثر الموت وهذا عذاب القبر وقال إنما توفون أجوركم يوم القيامة وقال تعالى في آل فرعون النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم

1 أنظر : الفصل ، 2/366،367.

الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب فهذا العرض المكور هو عذاب القبر وإنما قيل عذاب القبر فأضيف إلى القبر لأن المعهود في أكثر الموتى أنهم يقبرون وقد علمنا أن فيهم أكيل السبع والغريق تأكله دواب البحر والمحرق والمصلوب والمعلق فلو كان على ما يقدر من يظن أنه لاعذاب إلا في القبر المعهود لما كان هؤلاء فتنة ولا عذاب قبر ولا مسألة ونعوذ بالله من هذا بل كل ميت فلا بد من فتنة وسؤال وبعد ذلك سرور أو نكد إلى يوم القيامة فيوفون حينئذ أجورهم وينقلبون إلى الجنة أو النار وأيضا فإن جسد كل إنسان فلا بد من العود إلى التراب يوما ما كما قال اله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فكل من ذكرنا من مصلوب أو معلق أو محرق أو أكيل سبع أو دابة فإنه يعود رمادا أو رجيعا أو يتقطع فيعود إلى الأرض ولا بد وكل مكان استقرت فيه النفس أثر خروجها من الجسد فهو قبر لها إلى يوم اليقيامة وأما من ظن أن الميت يحيى في قبره فخطأ لأن الآيات التي ذكرنا تمنع من ذلك ولو كان ذلك لكان تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال إنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه وكذلك الله قوله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها إلى قوله إلى أجل مسمى فصح بنص القرآن أن روح من مات لا يرجع إلى جسده إلا إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الأرواح ليلة أسري به عند سماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاء وأخبر عليه السلام يوم بدر إذ خاطب القتلى وأخبر أنهم وجدوا ما توعدهم به حقا قبل أن يكون لهم قبور فقال المسلمون يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا فقال عليه

السلام ما أنتم بأسمع لما أقول منهم فلم ينكر عليه السلام على المسلمين قولهم أنهم قد جيفوا وأعلمهم أنهم سامعون فصح أن ذلك لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد فلا حس له .... وقد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه رأى موسى عليه السلام قائما في قبره يصلي ليلة الإسراء وأخبر أنه رآه في السماء السادسة أو السابعة وبلا شك إنما رأى روحه وأما جسده فتوارى بالتراب بلا شك فعلى هذا أن موضع كل روح يسمى قبرا فتعذب الأرواح حينئذ ولا تسأل حيث كانت وبالله تعالى التوفيق " (1).

وانتحى ابن حزم لإبطال قول الخوارج بجواز الخلافة فى غير قريش معولا على النص والإجماع والعقل فقال : " وبوجوب الإمامة في ولد فهر ابن مالك خاصة نقول بنص رسول الله صلى الله عليه و سلم على أن الأئمة من قريش وعلى أن الإمامة في قريش وهذه رواية جاءت مجيء التواتر .... ومما يدل على صحة ذلك إذعان الأنصار رضي الله عنم يوم السقيفة وهم أهل الدار والمنعة والعدد والسابقة في الإسلام رضي الله عنهم ومن المحال أن يتركوا اجتهادهم لاجتهاد غيرهم لولا قيام الحجة عليهم بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الحق لغيرهم في ذلك"(2).

ويستطرد ابن حزم فى جدله وهو يرد على الخوارج فيوضح حكم الحليف والمولى لقريش بقوله : " فإن قال قائل أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش يدخل في لك الحليف والمولى وابن الأخت لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم ومن أنفسهم وابن أخت القوم منهم فالجواب وبالله تعالى التوفيق أن الإجماع قد تيقن

1 أنظر : الفصل ، 2/372-374.

2 أنظر : الفصل ، 3/6،7.

وصح على أن حكم الحليف والمولى وابن الأخت كحكم من ليس له حليف ولا مولى ولا ابن أخت فمن أجاز الإمامة في غير هؤلاء جوزها في هؤلاء ومن منعها من غير قريش منعها من الحيف والمولى وابن الأخت فإذا صح البرهان بأن لا يكون إلا في قريش لا فيمن ليس قرشيا صح بالإجماع أن حليف قريش مولاهم وابن أختهم كحكم من ليس قرشيا وبالله تعالى التوفيق" (1).

ويقف ابن حزم مع إنكار الخوارج للدجال وقفة متأنية بشأن الأفعال التى تصدر من الدجال فيقارنها بما كان يفعله سحرة فرعون من الحيل ، وكذا ما كان يفعله الحجاج وأصحاب العجائب وينص على ذلك بقوله : " وأما قولنا في هذا فهو أن العجائب الظاهرة من الدجال إنما هي حيل من نحو ما صنع سحرة فرعون ومن باب أعمال الحلاج وأصحاب العجائب يدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم أن معه نهر ماء ونهر خبز فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أهون على الله من ذلك حدثنا يونس بن عبد الله بن مغيث حدثنا أحمد بن عبد الرحيم حدثنا محمد بن عبد السلام الخشني حدثنا محمد بن بشار بندار حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا هشام بن حسان الفردوسي حدثنا حميد بن هلال عن أبي الدهماء عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سمع من أمتي الدجال فلينأ عنه فإن الرجل يأتيه وهو يحسبه مؤمن فيتبعه مما يرى من الشبهات. (2). ثم يعب على هذا الحديث بقوله : " وبهذا تتآلف الأحاديث وقد بين رسول

1 أنظر : الفصل ، 7/3.

2 أنظر: الفصل ، 130/1.

الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن ما يظهر الدجال من نهر ماء ونار وقتل إنسان وإحيائه أن ذلك حيل " (1).

لم يكتف ابن حزم بذلك بل يوظف معارفه ومرجعيته العلمية فى تبيين حقيقة حيل الدجال بذكر مسألة رآها بعينه تخص الدبر وحيلها فيقول : " وقد رأينا لدبر يلقى في الماء حتى لا يشك أحد أنها ميتة ثم كنا نضعها للشمس فلا تلبث أن تقوم وتطير وقد بلغنا مثل ذلك في الذباب المسترخي في الماء إذا ذر عليه سحق الآجر الجديد وآيات الأنبياء عليهم السلام لا تكون من وراء حائط ولا في مكان بعينه ولا من تحت ستارة ولا تكون إلا بادية مكشوفة " (2).

ويتزيد ابن حزم فى هذا الموضوع عندما يذكر واقعة وقعت له مع أحد المحتالين ونجح فى إظهار حيلته وفضيحته فيقول : " وقد فضحت أنا حيلة أ بي محمد المعروف بالمحرق في الكلام المسموع بحضرته ولا يرى المتكلم وسمت بعض أصحابه أن يسمعني ذلك في مكان آخر أو بحيث الفضاء دون بنيان فامتنع من ذلك فظهرت الحيلة وإنما هي قصبة مثقوبة توضع وراء الحائط على شق خفي ويتكلم الذي طرف القصبة على فيه على حين غفلة ممن في المسجد كلمات يسيرة الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك فلا يشك من في البيت مع المحرق الملعون في أن الكلام اندفع بحضرتهم وكان المتكلم في ذلك محمد بن عبد الله الكاتب صاحبه"(3).

---

1 أنظر: الفصل ، 131/1.

2 أنظر : الفصل ، 131/1.

3 أنظر : الفصل ، 131،132/1.

وإذا كان مفتى الأباضية بعمان فى – عصرنا الحالى – قد أنكر على ابن حزم قوله فى أباضية الأندلس ودعا الناس إلى عدم الأخذ برأيه دون أن يقدم دليلا على صحة قوله(1) فلاشك أن فقهاء الأباضية فى عصره قد عارضوه وأنكروا عليه ما قاله ودونه عنهم دفاعا عن مذهبهم وأتباعهم ، خاصة وأنهم كانوا كثيرين بالأندلس فضلا عن أن كل من محمد بن عبدالله البرزالى وابنه إسحاق حاكما قرمونة كانا من الأباضية ، كما ذكرنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة ، ومن ذلك يتضح أثر ابن حزم الفكرى والعملي إذ مع المعارضة والإنكار تنتشر الآراء – أعنى آراء ابن حزم تجاه الخوارج – ويصبح لها أتباع ومدافعون .

ولابد مما ليس منه بد أن نبين أن عصر الموحدين شهد انتشاراً كبيراً لمصنفات وأفكار ابن حزم الظاهرى فى المغرب والأندلس على السواء ومن جملتها ردوده على الخوارج وسائر الفرق الإسلامية ، وهو ما يؤكده المراكشى فى حدود سنة 621هـ/1224م فى ختام ترجمته لابن حزم حيث قال : " وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل ، وإن كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد فيما علمت ، وقد كثر مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم " (2) .

---

(1) عبدالقادر البحراوى ، الخوارج ، ص88 هامش(1) .

(2) أنظر : المعجب ، ص49.

المبحث الثالث : موقف أهل السنة من المعتزلة

وأما بشأن موقف أهل السنة من المعتزلة فقد لقى ابن مسرة المعتزلى معارضة السلطة الأندلسية والعلماء لمخالفته للمذهب المالكي حيث أنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق ملكه كتابا طويلا – كتبه الوزير الكاتب عبدالرحمن بن عبدالله الزجالى– يحث فيه على استئصال شأفتهم وتتبع أقوالهم ، وتحذير الناس منهم ، وورد بالكتاب العديد من النصوص القرآنية التى تبين ضلال المسرية ، كما صور الكتاب حالة الخليفة الناصر بعد أن وصلته أخبارهم حيث انشغلت نفسه بهذا الأمر وأقض مضجعه وأسهر ليله ، كما أمر الناصر بتلاوة هذا الكتاب على المنبر الأعظم بحضرته ليقرع قلب الجاهل ويفت كيد المستهتر الحائر وينقض عزم المعاند المعاجل ويضطر الغواة إلى الإنابة الصحيحة التى تقبلها الله منهم أو يكشف عن الأذهان سرائرهم فيكون عليهم الشهيد (1).

لم تتوقف السلطة الحاكمة عند حد هذا الكتاب فى مواجهة أتباع ابن مسرة المعتزلى بل يذكر ابن حيان أن البحث عنهم ظل مستمرا طيلة أيام عبدالرحمن الناصر بقوله : " وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم ، بقية أيام الناصر لدين الله " (2).

كذلك فقد انبرى التيار الرسمى فى عهد الخلافة الأموية بالأندلس للتصدى لأفكار ابن مسرة المعتزلى وأتباعه وفى مقدمة ذلك القاضى المالكى محمد بن يبقى بن زرب

---

(1) محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس، ص121-125.

2 أنظر : محمد عبدالله عنان : اكتشاف السفر الخامس من المقتبس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، 1965-1966م ، عدد 13 ، ص137.

(ت381هـ/991م) والذى وصف أبو الحسن البناهى [1] جهوده فى تقصى المسرية والرد عليهم بقوله : " واعتنى القاضى ابن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستتابه من علم أنه يعتقد مذهبهم ; وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على ابن مسرة ، قرئ عليه وأخذ عنه " [2] .

ويصف لنا البناهى واقعة لاستتابة ابن زرب للمسرية بقوله : " وكان سنة 350 هـ استتاب جملة جيء بهم إليه من أتباع ابن مسرة ; ثم خرج إلى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ; فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ; وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين " [3] .

ويلحق بابن زرب فى الرد على المسرية أحد ممثلى الاتجاه الرسمى فى الدولة وهو أبو بكر الزبيدى الأديب واللغوى والنحوى الأندلسى الشهير مؤدب الخليفة هشام المؤيد بن

---

1 هو البناهى بالباء قبل النون كما حققناه فى بحثنا أجناس الكتابة التاريخية عند أبى الحسن البناهى ، والذى ألقيناه بمؤتمر الحضارة الأندلسية الدولى بمركز الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية فى الفترة من 15-17 نوفمبر 2016م ، وقد سبقنا إلى هذا التحقيق العلامة محمد بن شريفة فى دراسة ماتعة له بعنوان البناهى لا النباهى ؟. وسبب هذا اللبس النسخة التى نشرها المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى العام 1948م جاعلا اسمه النباهى بالنون قبل الباء ، وهو وهم أكدنا عليه من خلال العديد من المخطوطات فضلا عن كلام المتخصصين فى المؤتلف والمختلف من علماء الحديث كما هو مبين فى موضعه .

2 أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص78 ; محمد عبدالحميد عيسى ، تاريخ التعليم فى الأندلس، ص118; Asin placios ,The mystical philosophy of Ibn masarra , P.95-118

3 أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص78.

المستنصر الذى صنف كتابا وسمه بـ " هتك ستور الملحدين " [1] ، ويتضح من عنوان الكتاب شدة صاحبه فى التصدى لأفكار المسرية .

ومن جملة الردود على المسرية من أصحاب الاتجاه الرسمى فى الدولة الحافظ والفقيه المالكى أبو عمر الطلمنكى (ت 429هـ/1038م) شيخ الحافظين ابن حزم وابن عبدالبر فقد صنف كتابا ضخما استهدف من خلاله كشف العورات المستورة لمذهب ابن مسرة [2].

ولا شك أن الدولة بما قدمناه آنفا واجهت أتباع ابن مسرة بقدها وقضيبها ، وهو ما عبر عنه ابن حيان بقوله : " وجرت لهم خطوب يطول القول فيها " [3]. ورغم كل هذه المواجهات والامتحانات والامتهان الشديد للمسرية فإن القاضى الذى ناهض هذه الحركة لم يتمكن من الوصول إلا إلى نتائج بسيطة لا يعرف مدى خطورتها ، ومن ثم فلم يتعرض أيا من المسرية لعقوبة كبرى بسبب معتقدهم المعتزلى على حد قول المستشرق الأسبانى أسين بلاسيوس [4].

على أية حال لم تتوقف حملة مواجهة المسرية على أصحاب الاتجاه الرسمى فى الدولة فحسب بل وجدنا اتجاها آخر كان محسوبا على المعارضة ، وقد مثله ابن حزم الظاهرى الذى اندفع لتفنيد آراء المعتزلة بالأندلس تحت تأثير سببين :-

---

1 محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس، ص118.

2 نفس المرجع والمكان والصفحة .

3أنظر : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص24.

4Asin placios :Ibn masarra y su Escuela , p.89,90.

الأول : تأثره بشيخه (أحمد الطلمنكى) الذى توجه بالنقد لآراء ابن مسرة كما سبق وأن أشرنا.

الثانى : ازدهار المذهب الاعتزالى بالأندلس والذى أصبح يمثل جماعة يخشى بأسها . بل سعت لقلب نظام الحكم الأموى أكثر من مرة كما أسلفنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة ، وهو ما حرك السواكن بداخل ابن حزم صاحب النزعة الأموية ليقف فى وجه هذه الموجة الاعتزالية .

سلك ابن حزم مسلكين لمجابهة المشروع الاعتزالى هما :-

الأول: المناظرة لأتباع المذهب الاعتزالى حول مبادئه وأصوله ، التى كانت فى مجملها تعتمد على العقل أكثر منها على النقل ، مثل مناظرته لجماعة من أتباع ابن مسرة حول (علم الله هل هو الله أم غيره ؟، وهل هو محدث مخلوق أم لا؟) (1) وأخرى مع واحد من أتباع ابن مسرة حول (قدرة الله تعالى) ، حيث بدأ المناظر بقوله إن القرآن جاء بأن الله يفعل ما يشاء ، ونحن لا ننكر هذا وإنما نمنع أن يوصف الله بالقدرة على ما لا يشاء ، فرد عليه ابن حزم بجمع من الآيات منها قوله تعالى (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) [سورة الرعد آية 26] وقوله (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى) [سورة يس آية 81] وقوله (إنه لن يؤمن من قومك إلا من آمن) [سورة هود آية 36] وقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض) [سورة الأنعام آية 65] ثم عقب على هذه الآيات بقوله " فهذا نص على أنه قادر على

(1) ابن حزم ، الفصل ، 1/376 – 393 .

أن يفعل... ما قد سبق فى علمه من هدى من علم أنه لا يهديه ، ومن تعذيب من علم أنه لا يعذب أبدا ، ومثل هذا فى القرآن كثير"[1] وهكذا فقد استنطق ابن حزم فى مناظرته هذه النصوص القرآنية من واقع العقل ، وأفحم الخصم بما جعله يؤثر الصمت [2].

الثانى : الرد على مبادئهم المخالفة لأهل السنة فى فصول خاصة من كتبه ، مثل فصل الرؤية حيث ذهبت المعتزلة إلى أن الله لا يرى فى الآخرة ، واحتجت بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) [سورة الأنعام آية 103] فرد عليهم ابن حزم بأن هذه الآية لاتنفى الرؤية وإنما تنفى الإدراك ، الذى هو منتف عن الله ، أما الرؤية فثابتة فى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [سورة القيامة آية 22،23] وفصل عن القرآن إذ قالت المعتزلة إن كلام الله مخلوق ، فرد عليهم ابن حزم بأن القرآن كلام الله ، ويكفر من لم يقل بذلك ، وهو غير مخلوق وليس هو غير الله ، وفصل عن الشفاعة التى أنكرتها المعتزلة ، فرد عليها ابن حزم بقوله تعالى (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) [سورة طه آية 109] وبقوله تعالى لرسوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [سورة الإسراء آية 79] والمقام المحمود هو إراحة الناس من هول الموقف وشناعته يوم القيامة [3] إلى غير ذلك من أقوالهم التى انتقدها ابن حزم فى الجزء الثانى من الطبعة التى اعتمدنا عليها

(1) أنظر : الفصل ،2/25،26.

(2) أنظر : المصدر السابق ،2/117-119 .

(3) نفسه، 2/34 – 47 ، 168 –186 ، 366 –369.

من كتابه – الفصل – كما خصهم بفصل كامل ضمن كتابه السابق استقصى فيه مبادئهم المخالفة لأهل السنة وانتقدها بحجج عقلية ونقلية (1) .

وهكذا فقد استطاع ابن حزم أن يواجه المعتزلة ويفند آراءهم من خلال المناظرة والتدوين ، تاركا بذلك أثراً على الأندلسيين عامة وتلاميذة خاصة الذين اهتموا بمناظراته ودراساته الخصاصة بهذا الشأن (2) .

وقد لقيت أفكار المعتزلة – ومن سار على دربهم فى التأويل– اعتراضا من فقهاء الشافعية بالأندلس فى القرنين الرابع والخامس الهجريين (3) حيث نقلوا أقوال وفتاوى أئمتهم بالمشرق وأذاعوها بالأندلس ليبينوا وجهة نظرهم بخصوص المعتقد الاعتزالى ومن هذه الأقوال قول الإمام أبو العباس بن سريج (ت 306هـ) الملقب بالشافعي الثاني :" لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسّمة والمشبهة والكرامية والمكيفة بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل " (4).

كذلك كان لفقهاء الأحناف دور فى مواجهة المعتقد الاعتزالى بالأندلس فى عصر الخلافة وبعدها (5) حيث نشروا أقوال أئمتهم بشأن التأويلات الاعتزالية ومنها كلام الإمام الطحاوي صاحب العقيدة الطحاوية ، التى كتبها لبيان معتقد الإمام أبي حنيفة وأصحابه ،

---

(1) أنظر : ج3ص128-141

(2) ابن بسام ، الذخيرة، قسم1ج1ص170; وأنظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء، 199/18.

3 عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص55.

4البغدادى : تاريخ بغداد 290/4 ; وانظر : الذهبى :سير أعلام النبلاء ، 201/14 ; وعن عقيدة ابن سريج أنظر : ابن القيم : اجتماع الجيوش الإسلامية ، 62.

5 عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص56.

وبين فيها أن أبا حنيفة صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه , وتلميذه أبو يوسف كفر بشراً المريسي [1].

وفى ظل دولة المرابطين ظلت المعتزلة عرضة لهذه الحملة الشديدة من قبل السلطة وفقهاء المالكية ، لا سيما وأن المذهب المالكى كان هو المذهب الرسمى فى عهد المرابطين ، ومن ثم انتشرت أفكار وفتاوى المالكية ضد المعتزلة فى ظل هذه الدولة .

وفى عهد الموحدين رغم أن ابن تومرت أول حاكم لهذه الدولة حمل فكره فى طياته أفكاراً اعتزالية إلا أن أفكار ابن حزم المعارضة للمعتزلة كانت أكثر انتشاراً وقبولا فى الأندلس فى ظل هذه الدولة .

1الذهبى : سير أعلام النبلاء ، 10/200ـ201 .

المبحث الرابع : موقف أهل السنة من الأشعرية

وفيما يخص الأشعرية والموقف منهم فلابد أن نقرر بداية أن بعض المالكية من أصحاب التيار الرسمى فى عصر الخلافة الأموية وعصر ملوك الطوائف قد انتهجوا نهجا أشعريا كأبى الوليد الباجى الذى صار رأساً من رؤس الأشاعرة بالأندلس ، ثم ابن سهل الجيانى صاحب الأحكام الكبرى ، ثم يستمر هذا الأمر لنراه فى عهد المرابطين حيث نجد رأساً من رؤس المالكية وهو ابن العربى المالكى من أكابر منظرى الأشعرية والمدافعين عنها ، وهو الأمر ذاته الذى وجدناه فى ظل دولة الموحدين التى غلب عليها فى المعتقد النزعة الأشعرية كما سبق وأن أشرنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

هذا التحول فى حد ذاته يجعل الباحث فى حيرة شديدة تجاه هذه المسألة لا سيما وأن الرأى المعتمد عند المالكية قبل هذا التحول كان ينظر إلى الأشاعرة على أنهم من أهل الأهواء ، وهو الأمر الذى نقل عن العلامة الكبير ابن عبدالبر النمرى – الذى بدأ مالكيا ثم تحول للظاهرية ثم انخلع وأصبح إماما من أئمة الاجتهاد – حيث روى بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويز منداد " أنه قال في كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء , وقال: "أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ويهجر ويؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها[1] ، وروى ابن عبد البر نفسه في" الانتقاء عن الأئمة الثلاثة " مالك وأبي حنيفة والشافعي" نهيهم عن الكلام وزجر أصحابه

1أنظر : جامع بيان العلم وفضله تحقيق عثمان محمد عثمان ، الطبعة المنيرية ، 2/96 ،117.

وتبديعهم وتعزيرهم ومثله ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية فماذا يكون الأشاعرة إن لم يكونوا أصحاب كلام؟

وهذا التوجه من ابن عبدالبر النمرى فى مواجهة الأشعرية كان بعينه عند صاحبه ابن حزم الظاهرى الذى اندفع لدراسة مذهبهم والرد عليهم تحت تأثير عدة أسباب :-

أولها:- اتصاله بأكابر الأشاعرة بالأندلس ومحادثته إياهم فى أصول الدين ، ومنهم سليمان بن خلف بن باجة الشهير بأبي الوليد الباجى ، وغيره ممن اكتفى بذكره بقوله : " وسمعت بعض مقدميهم يقول " (1) .

ثانيا:- دفع بعض مثقفى الأندلس ممن كان على اتصال بالأشاعرة له فى ذلك، حيث كانوا يخبروه ببعض آرائهم المعارضة لأهل السنة وسبب اعتناقهم لها(2).

ثالثا:- اعتناق بعض المالكية الكبار للمذهب الأشعرى مثل أبى الوليد الباجى،فكان رده عليهم ردا على المذهبين الأشعرى والمالكى .

رابعا:- قول الأشاعرة بالقياس والذى كان أحد أسباب معارضته للمالكية واختلافه معهم .

خامسا:- لجوء بعض الأشاعرة إلى التأويل والتحريف لآيات القرآن ونصوص السنة عن موضعها الصحيح مثل قولهم إن معنى قوله تعالى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [سورة البقرة آية 146] تعنى أن اليهود والنصارى عرفوا صورة النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرف الإنسان جاره فقط ولم يعرفوا أنه رسول الله ، وكقولهم إن الله ليس له سوى اسما واحدا ، وإن قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [سورة الأعراف آية 180] إنما

---

(1) أنظر : الفصل ،3/157،143 .

(2) نفسه ،3/160،159 .

أراد أن يقول لله التسميات الحسنى ، وكذلك قول الرسول(ص) (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد) فإنما أراد أن يقول تسعة وتسعين تسمية فقال تسعة وتسعين اسماً[1].

لهذه الأسباب مجتمعة اندفع ابن حزم يعارض الأشاعرة بكل ما يملك من علم ووسائل فصنف كتابه "اليقين فى النقض على الملحدين المحتجين عن إبليس اللعين وسائر المشركين" ردا على بعض من ألحد منهم بالأندلس والقيروان، والذين ذهبوا إلى أن إبليس منذ عصى الله تعالى فى السجود لآدم لم يعرف أن الله حق ، ولا أنه خلق آدم من تراب وطين ، ولم يسأل الله أن ينظره إلى يوم البعث ، وأن ما ورد فى القرآن على لسانه إنما كان قولا هازلا مستهزئا منه بلا معرفة ولا اعتقاد ، وعلى رأس هؤلاء كبير من كبرائهم من أهل القيروان يدعى عطاف بن دوناس الذى صنف كتابا فى نصرة ذلك [2] كما ضمن ابن حزم كتابه – الفصل – عدة فصول فى الرد على مبادئ الأشاعرة وأصولهم بجانب ردوده المتناثرة بالكتاب مثل مبحث شنع المرجئة ، ومبحث الإيمان والطاعات والمعاصي والوعد والوعيد ، ومبحث اعتراضات للمرجئة [3].

لم يكتف ابن حزم بالتصنيف كوسيلة لمجابهة الأشاعرة ، بل عمد إلى الوسيلة المثلى فى مواجهة أى فكر مخالف وهى المناظرة حول أصولهم والتى كانت تعقد فى مجالس حافلة بالناس ، ومن ذلك مناظرته لأبى الوليد الباجى حول أحوال الناس ومعانيهم ، وما وقع بينه

---

(1) نفس المصدر،3/152،144، والحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه باب12،وكتاب الشروط باب18.

(2) نفس المصدر ،3/144،143 ، وعطاف بن دوناس لم أعثرله على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(3) أنظر: الفصل،2/209-3،245/143-165 .

وبين بعض مقدميهم حول – الذنوب هل يكون فيها صغائر أم لا؟ –، فقد ذهب المناظر إلى إنكار أن يكون فيها صغائر، فعارضه ابن حزم بقوله تعالى(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) [سورة النساء آية 131] الأمر الذى ألجم مناظره وجعله يلتزم الصمت (1) ومثل ما وقع بينه وبين أحدهم حول – جواز اقتراف الأنبياء الصغائر بالعمد –، وهو القول الذى كان يدين به المناظر فسأله ابن حزم أليس من الصغائر تقبيل المرأة الأجنبية وقرصها فقال نعم فرد عليه ابن حزم قائلا : أتجوز أن يظن بالنبيأن يقبل امرأة غيره متعمداً :فقال الخصم معاذ الله من هذا ورجع إلى الحق من حينه وترك هذا الأصل الفاسد (2) .

ومثل ما وقع بينه وبين أحد أئمتهم حول أصل من أصولهم وهو – أن علم الله هو غير الله وأنه لم يزل معه – ، فقال له ابن حزم إذا كنتم تقولون هذا القول فلماذا تنكرون على النصارى قولهم إن الله ثالث ثلاثة، فرد عليه المناظر قائلا ما أنكرنا على النصارى إلا اقتصارهم على الثلاثة فقط ، ولم يجعلوا معه تعالى أكثر من ذلك فأمسك عنه ابن حزم لتصريحه بأن قولهم أدخل فى الشرك من قول النصارى ، ولمعارضته لقوله تعالى (قل هو الله أحد) [سورة الإخلاص آية 1] (3) ، ومثل ما وقع بينه وبين أحد علمائهم حول –إلصاقهم بعض الصفات لله تعالى مما لم يسم نفسه بها –، كقولهم إن الله يكيد ويستهزئ ويمكر وينسى وهو خادعهم، فألزمه ابن حزم أن يسموا ربهم ماكرا وكيادا وخداعا وناسيا وساخرا، فإن قالوا إن هذه صفات ذم وإنما نصفه بصفات المدح لزمهم أمرين :–

(1) أنظر: الفصل ،3/158،157،145.

(2) نفس المصدر،2/319 .

(3) أنظر : الفصل،1/393 .

أحدهما: إما أن يطلقوا أن الله أخبر عن نفسه بصفات الذم ، وهذا كفر على حد قول ابن حزم.

الثاني: أن يصفوا ربهم بكل صفة مدح ، وإن لم يأت بها نص، وإلا فقد تناقضوا فيصفوه بأنه عاقل وشجاع وجلد وسخى(1).

ويتضح أثر ابن حزم فى إقناعه بعض الأشاعرة فى ترك أصولهم والعودة لمذهب أهل السنة والجماعة كما سبق ، فضلا عن اهتمام الكثيرين من الأندلسيين بمناظراته حيث كانوا يحرصون على حضورها وتدوينها ، وأخيرا تلاميذه الذين اهتموا بدراسة كتب شيخهم ودرسوها لتلاميذهم (2).

ولا شك أن موقف الحنابلة المتعنت من الأشاعرة عرف طريقه إلى الأندلس بحكم وجود بعض الحنابلة وإن كانوا قلة (3). فمنذ أن اتهم الإمام أحمد " ابن كلاب " (4) بالبدعة وأمر بهجره ـ وهو المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري ـ لم يزل الحنابلة مع الأشاعرة في معركة طويلة حتى في أيام دولة نظام الملك ـ التي استطال الأشاعرة فيها ـ وبعدها كان الحنابلة يخرجون من بغداد كل واعظ يخلط قصصه بشيء من مذهب الأشاعرة ولم يكن ابن

---

(1) نفس المصدر،1/404،.405

(2) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم1مجلد1ص170; وأنظر : فهرسة ابن خير،2/580 ; الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،18/199.

3 عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص57.

4 هو عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة ، وربما وافقهم . أخذ عنه الكلام داود بن على الظاهري ،وقيل : إن الحارث المحاسبى أخذ علم النظر والجدل عنه أيضا ، وكان يلقب كلابا ;لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته . وأصحابه هم الكلابية ، لحق بعضهمبأبى الحسن الأشعري ، ولابن كلاب كتاب " الصفات " ، وكتاب " خلق الأفعال " ، و كتاب . الرد على المعتزلة . أنظر : الذهبى : سير أعلام النبلاء ، 11/174-176.

القشيري إلاّ واحداً ممن تعرض لذلك وبسبب انتشار مذهبهم وإجماع علماء الدولة العباسية على محاربته أصدر الخليفة القادر منشوراً عرف بـ " الاعتقاد القادري " أوضح فيه العقيدة الواجب على الأمة اعتقادها سنة 433هـ ، وقرىء هذا الاعتقاد بالديوان وحضر الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القزويني ، فكتب خطه تحته قبل أنْ يكتب الفقهاء ، وكتب الفقهاء خطوطهم ، وفيه إنَّ هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر [1].

وتجدر الإشارة إلى أن عصر الموحدين رغم أنه شهد انتشاراً للأشعرية من قبل السلطة والتيار الرسمى الممثل لها من الفقهاء والقضاة فإن ثلة من الفقهاء وجهوا انتقاداتهم للأشعرية كابن رشد وابن عربى الصوفى ، وهو ما أشرنا إليه بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

1 ابن الجوزي : المنتظم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1412هـ/1992م ، 15/279-282. أحداث سنة : 433 , 469 , 475. وعن نص الاعتقاد القادرى . أنظر : ملحق رقم (2) من ملاحق الكتاب .